مساهمة لوضع سوسيولوجية "للتأثير" في الأدب المقارن " بول كورنيا "

ترجمة : عبد القادر بوزيد

يمكن عند الاقتضاء وبصورة تبسيطية، أن نعتبر التأثير، كما أقترح ذلك فان تيغم، عملية تحويل أدبي يتم بين حدين لغويين. وهو علاقة من النوع التالي: التأثير مرسل ← وسيط ← مستقبل. والأدب المقارن يدرس هذه العلاقة من أربع زوايا: فهو يتساءل عن سبب " التأثير " وما ينقله، وبأية وسيلة، وما هي مردوديته. من بين هذه النقاط، هناك بالطبع نقاط يفضلها المختصون ويكتبون فيها أعمالا تعد بالآلاف، بينما هناك، على العكس، نقاط مهملة إهمالا شديدا، لأنها على ما يبد وعسيرة ومردودها أقل. تنتمي إلى الصنف الأول تلك الدراسات (...) التي تهتم بمتابعة التأثيرات (اشتهار الموضوعات أو الكتاب أو الأعمال ...الخ) والوسائل التي تنتقل بها هذه التأثيرات. بينما تنتمي إلى الصنف الثاني تلك الدراسات التي تبحث في " أسباب هذه " التأثيرات " ونتائجها الفعلية في مجال الإبداع.

لنتمعن الصنف الأول... إن كثيرا من الدراسات الحالية المخصصة " للشهرة " و " الوسائط "، إن لم نقل أغلبها، تفـــرط إفراطـــا فـــي الوصفيـــة. ويستفحل هذا العيب أكثر فأكثر بفعل المتطلبات الجامعيـــة التـــي تســـتهدف الإحاطة الشاملة بالموضوع، والتفاقم المذهل للأعمال البيبليوغرافية. وهكـــذا توضع فهارس لا حد لها، ويضيع الباحث في ركام الإحصاءات.

ومن جهة أخرى، سوف يتضح لنا إذا نظرنا إلى الأمور عن كثـــب، بأن حتى أفضل الدراسات، (...) إنما تهتم عادة بـــ " الاشتهار " أكـــثر مـــن الاهتمام بـــ " التأثير " وهي تبرز سمعة روسوفي إنجلـــترا أو شـــيللر فـــي فرنسا، فتضع جدولا بترجمات أعماله ومحاكاتها ...الخ وكذلك الآراء النقديـــة التي قدمت حولها، فالمنهج يتمثل إذن في استشراف الطاقة الإبداعية المســـار الخارجي لتأثير.لكن بين القطبين ليس هناك من علاقة ضرورية ولا كافيـــة. ذلك أن العامل الخارجي (أي عامل بما في ذلك التأثير) في عمليـــة الإبـــداع ليس سوى الفرصة التي تسمح ببروز الظاهرة، وقليلا ما يكون سببا لها. ثـــم إن الأثر الأدبي لا ينشأ أبدا بفعل سبب وحيد بل بفعل عدة عوامـــل متداخلـــة ذات طابع مختلف وأهمية متفاوتة هذه العناصر كلها تكون حقل تحفيز ذهنـــي يحيط بالفرد المبدع، ويضاعف من حظوظ آتصاله المتقطع أو الدائم مع القيـــم الروحية للوسط المحيط به. فليس من المشروع إذن أن نعزل " تـــأثيرا " مـــا عن سياقه الحيوي، ونضعه تحت المجهر وندرسه وكأنه وحده الموجود، وهو ما يؤدي إلى النتيجة التالية: تضخيم دور المرسل وتزوير صورة "الاســـتقبال" بشكل أساسي.

وعلى العموم، فإن الدراسات حول الانتشار والوسائط لا توضح كيف أن عملا ما يحدد عملا آخر بفعل تفجيره لطاقة خلاقة، بل تبرز فقط حظـــوظ وقوع "التأثير"، أي أنها تتوقف عند حدود الممكن والعرضي، فتعرفنا بكميـــة "المعلومات" (ترجمات، اقتباسات، إشارات نقدية ...الخ) المتوفرة حول كـــاتب أجنبي أو كتاب أو موضوع، دون أن تبصرنا بالقيمة الحقيقية لـــهذا "التـــأثير" "هذه الآلية الدقيقة والخفية التي يولد أثر بواسطتها أثرا آخر" كما يقول كلـــود بيشوا و أندريه روسو (...).

فإذا كانت هذه هي الحالة، فإننا لنتساءل عن السبب الذي يجعل البعض يتمسك بالثرثرة واجترار الكلام بينما تبدو لغة الأرقام أكثر فعالية، ولماذا يقع اللجوء إلى علم النفس التقليدي بينما يظهر علم الاجتماع على أنه الأنسب. وأنه يملك الأدوات الضرورية للقيام بمثل هذه الدراسات. وبالفعل فهل هناك وسيلة أفضل لإبراز الاشتهار من الدراسة المنهجية لعملية النشر، حسب طرق التحليل الإحصائي الحديث، ضمن أفق سوسيولوجي " مفتوح " (من شأنه إدخال التعديلات الضرورية على الدراسة الإحصائية البحتة). (...)

نتوقف الآن عند الجانبين الآخرين من عملية مقارنة البحوث التي تدور حول كيفية تكون الظواهر وتلك المتعلقة بمردودية التأثيرات. ونطرح سؤالا في البدء: ما هو سبب قلة الاهتمام بمصادر " التأثيرات " وقلة التساؤل عن العوامل التي تجعل وقوع التأثير أمرا ممكنا؟ قد يرجع ذلك إلى تحفظ ذي طابع " وضعي ": فكثير من العلماء يرفضون تخطي الوقائع التي يمكن قياسها وتدقيقها خوفا من السقوط في التأمل الاعتباطي. كما يمكن أن يكون وراء هذا الموقف نزعة هيجيلية تلقائية: " حدث شيء، فكان لا بد أن يحدث إذن ".

لكن التفكير حول كيفية نشوء "التأثير" يسمح في الوقت نفسه بالتعرف على طبيعة "المرسل" و "المتلقي". ذلك أن حدوث الاتصال والانتقال يفترض وجود نوع من التشابه بين القطبين نسميه " توافقا " (Concordance) . والأساس الأكثر تجريدا والأعم لهذا "التوافق" نجده في الوحدة الانثروبولوجية لأشكال التخيل. هذا المفهوم يتفرد ويتحدد كلما نزلنا إلى مستوى مجموعات بشرية أضيق، مرتبطة ورؤية العالم والوراثة الثقافية. ونلاحظ هكذا وجود "توافق" في "العقلية" أو "الشخصية الأساسية" (...) بين أعضاء الأسر الأوروبية المختلفة. فقد شحذت هذه " الشخصية الأساسية " من خلال الغزوات والحروب والمبادلات في بوتقة تاريخ واحد، مرورا بنفس التحولات الاجتماعية والاقتصادية، وغذاها نفس التراث الإغريقي – الروماني – والتوحيد العبراني – المسيحي. هذه "الشخصية الأساسية" تتميز أكثر فأكثر كلما نزلنا إلى الأسفل نحو القوميات وعناصرها التركيبية.

هذه إذن، بصورة عامة، هي الكيفية التي يصبح " التأثير " بها ممكنا وسواء تعلق الأمر بالقوميات أو المجموعات الأخرى أو الأفراد. فإنه من الضروري أن يوجد دائما توافق (...) بين "المرسل" و "المتلقي" فيكون الأخير موصولا بنفس الموجة الموصول بها الأول، وهو لهذا يستطيع أولا، أن يفكك رموز رسالته، ثم أن يتخذا نموذجا، ثم يعيد إنتاجها أو يتبناها. ومن وجهة نظر "المستقبل" (المتلقي) التي هي أساسية، إذ لا وجود لتأثير من دونه، فإن التأثير يتمثل في تملك لقيم مشتركة في الجوهر، ولكنها توجد على مستوى أكبر من التماسك والقدرة على التعبير والإدراك للذات. و تلمس أساتذة المقارنة هذه الحقيقة وعبروا عنها أكثر من مرة بطريقتهم الخاصة. يقول بلد نسبرجر: " إنه لمن الأكيد أن عصرا أدبيا عندما يكتشف ويتبنى أفكارا وأشكالا غريبة، فإنه لا يتذوق ولا يحتفظ منها حقا إلا بتلك العناصر التي يحدسها ويتطلع إليها بفعل تطوره العضوي الخاص "

لكن إذ كان " التأثير " يفترض دائما وجود "توافق"، فإن العكس ليس صحيحا: إذ هناك " توافقات" لم تنجم عن "تأثيرات". وهي تنقسم إلى صنفين كبيرين: تاريخي ونموذجي. تنجر الأولى عن التطور المتوازي لمجموعات متجاورة، قد تصحبها بعض التسربات المتبادلة ولكنها تقع بصورة عرضية ومحدودة، وكمثل على ذلك: الرومنتيكية. إن انتشار هذا التيار في أوروبا وأمريكا وعمقه وتزامنه النسبي (...) يؤكد بأن الاعتماد على "التأثير" وحده لتفسير هذه الظاهرة لا يكفي، إذ من الواضح أن هذه الظاهرة إنما ترجع إلى مصادر وأصول متعددة (polygenèse).

أما " التوافقات " النموذجية فإنها تحصل في مناطق لا رابط بينها تقريبا أو منغلقة على بعضها البعض. ويذكر "اتيامبل" (Etiemble) مثلا رائعا على ذلك(...) فالرواية الصينية التي تشكلت من تراكم وتداخل أدب القصص الواقعية والسحرية "Sia-Sua"، تحتوي على تشابهات "عجيبة " مع رواية القرن XVIII الأوروبية والتي انبثقت من التأليف بين الأدب " البيكارسكي " وقصص " الديكاميرون " القصص المثالية. وتبرز لنا من هذا الأبعاد التي تكتسيها التوافقات النموذجية: فهي تطرح مشكل "الثوابت" التي قد تميز ملكة الإبداع التخيلي.

النقطة الأخيرة التي ستعرض لها بإيجاز تخص مشكل مردودية التأثيرات (...). نريد هنا أن نقترح أفقا لتجديد هذه الدراسات، مبنيا على التمييز السوسيولوجي بين مفهوم " الحضارة المادية " الذي يتضمن التكنولوجيا والعلوم الوضعية وكل تجربة إنسانية يمكن تعميمها وتقنينها، ومفهوم "الثقافة" الذي يتضمن الإبداع الأدبي والفني، وعلى العموم كل منتوج روحي يتجسد في شكل خصوصي وذاتي. هذان المجالات يحددان " تأثيرات " تبرز بشكل مختلف جدا. ففي ميدان التكنولوجيا، يسعى إلى محو الفوارق، وفي ميدان الثقافة إلى تكريسها. في الميدان الأول تظهر الاقتباسات واضحة ويتساوى المستوى، أما في الميدان الثاني، بالعكس فالأمر يتعلق بمبادلات نوعية تثري دون أن تؤدي إلى تساوي المستويات (...). إن السمة الأساسية لثقافة وطنية، باعتبارها كلية الانفعالات والمواقف والأفكار والتجارب التي تمتصها من الخارج، وتكون هي بدورها مركزا لانبثاق إبداعي. ويكون انتقال القيم بالطبع أكبر في اتجاه منه في الاتجاه الآخر. لكن الاتجاهات التقليدية البحتة تشكل في هذا المجال ظاهرة شاذة. وإن التمايز بين الثقافات الوطنية هو من العمق بحيث يمكن تقريبا التأكيد بأنه ما من مكان تقع فيه ظواهر تقليد جماعية إلا وسوف تبرز فيه، في وقت من الأوقات، ردود فعل في اتجاه معاكس تعيد التوازن.

لكن التمييز بين " التكنولوجيا " و " الثقافة " ليس قاطعا ولا مطلقا. وإن كوفيي (Cuvier) لعلى حق عندما أشار في كتابه "الوجيز في علم الاجتماع" بأن محاولة الفصل بين "الإيديولوجيات" مهما كانت وبين روافدها المادية هي عملية مصطنعة، ذلك أن الإيديولوجيا تميل إلى أن تتجسد، أن تتركز في صيغ وطقوس وأعراف وطرائق إجرائية تستعير بالضرورة شيئا من الوسائل التقنية " للتعبير ".

ولنتمعن الآن في ما تفيدنا به هذه المفاهيم الإجرائية. لتأكيد هذه المفاهيم، سنستعيد أولا، اختلافا موجودا على مستوى الأثر الأدبي (...) ويتعلق بالفرق بين جانب " تقني " وجانب "مضمون روحي مهيكل ". الأول متحرك، لا شخصي يمكن انتقاله بسهولة عبر الحدود، والثاني متفرد يستعصي على المحاكاة (...) لكن هذا لا يعني الفصل بين " الشكل " و"المضمون" وهما الطرفان اللذان عملت الاستطيقا الحديثة على تأكيد

ارتباطهما الذي لا ينفصم. غير أن ا
"الزجل" أو نوعا مقننا مثل "الســـونيت
المضمون الذي يحملانه (...) وينتج =
" تكنولوجيا " وهو " الشكل " بالمعنى
العمل، وجانبا " تعبيريا " الذي هو الش
الشكل بمعناه الأول يتكرر ويعبر الحدو
يمثل الركيزة المادية التي ترفد " المضم
هذين الطرفين ليست معطاة بشكل مطلق
جديد يميل إلى أن يتحول إلى نظام عام، و
أكثر فأكثر، أي أن يبتعد عن كونـــه " تعبـير
"(procédé). ومن هنا يصبح من الأهمية بمكان
المزدوجة. تأثير التقنيات الأدبية التي يقع " تبنيها
تكييفها.